شيطانية امرأة

للأستاذ كامل محمود حبيب

طوت (عليه) أيام الطفولة ، أيام كانت تلهو وتلعب فى منأى عن قيد التقاليد ، أيام كانت تمرح وتمزح بعيدة عن غل الدار ... طوت هذه الأيام فأخذت تشعر بدم الشباب يفور جياشاً فى عروقها فيضطرب أمنية فى قلبها ، ويلمع جمالا فى خديها ، ويتألق حياة فى خاطرها ؛ فامتدت يدها الغضة ترتب شعرها الفاحم السبط على نسق جميل جذاب ، وامتد ذوقها النسوى إلى الأصباغ والعطر تتأنق فى الاختيار وتتفنن فى التطرية ، وامتد خيالها إلى الثياب يخصها بعناية منه وفن ؛ وأبوها رجل فيه الثراء والبذل . فبدت الفتاة فى روعة الجمال وجمال الذوق وسمو الفن وخفة الظل ، فتتناهبها الأبصار والقلوب وهى فى شغل لا يعنيها إلا أن تكشف عن زينتها ورواءها لتسمع كلمة إطراء تنفث فيها النشوة أو عبارة مديح تبعث فيها الغرور

وجلست (علية) حيناً إلى المرآة تحدثها وتستشيرها ، ولكن قلب الفتاة الطموح كان يرنو إلى ما وراء المرآة ، فالبثت أن ضاقت بحديث المرآة فامتد بصرها إلى النافذة تريد أن تفزع من وحدة الحجرة إلى أنس الشارع ، فما راعها إلا أن ترى فى النافذة المقابلة شابا يجلس إلى المرآة يحدثها حديثاً ضاقت هى به . . . يحدثها حديثاً طويلا لا يحس فيه الملل ولا الضيق ، فتعلق به بصرها ... والتفت الشاب فرأى الفتاة تحدق فيه فبدت له فى روعة الجمال وروعة الزينة ، فتعلق بها بصره

وأحست الفتاة فى نظرات الشاب معانى تشبع نهم غرورها وتطفئ غلة أنوثتها ، فاطمأنت إلى ابتسامته وسكنت إلى تحيته ، وراحت تبادله ابتسامة بابتسامة ، وتحية بتحية ؛ وبينهما من الشارع ومن التقاليد حجاب لا يستطيع واحد أن يظهره

لقد كان (بهاء) شاباً فى زهرة العمر وجمال الحياة ، يتأنق دائماً فى زينته وفى لباسه ، وكان لا يحس وطأة الحياة ولا يضيق بتكاليف العيش رغم أنه موظف صغير فى الحكومة لا يبلغ راتبه إلا بضعة جنيهات ؛ فهو أعزب ، يسكن حجرة ضيقة رخيصة لا تنضم إلا على فتات من الأثاث ، وهو يقنع بالوضيع من الطعام والتافه من الشراب ليوفر لنفسه زينتها وألقها ، وهو يعيش على نهج الصعاليك من العزاب لا يعنيه إلا أن يبدو أمام الناس فى الغالى من اللباس ولا يشغله إلا أن يستمتع بالرخيص من المتعة. وطالما جلس إلى المرآة يهيء نفسه للشارع مثلما تفعل فتاة لا هم لها إلا أن تفرط فى الزينة أو تبالغ فى التطرية . فلما رأى (علية) ترمقه من خلال النافذة تعلق بها بصره وتشبث بها قلبه

وانطوت الأيام والفتاة تغدو وتروح إلى النافذة ترنو إلى فتاها من ثنايا الشباك ، والفتى لا يبرح مكانه بإزاء الشباك كأنه جدار أسند إلى جدار . وضاقت الفتاة بهذا الستار الكثيف المسدل بينها وبين فتاها حين أحست بهوى الشاب يتسرب إلى قلبها فى رفق ولين ؛ وطمعت أن تجلس إليه ساعة من زمان علها تسمع منه أنشودة من أناشيد الغزل الذى يصبو إليه قلب كل أنثى ، أنشودة يوقعها شاب على أوتار قلب فتاة ؛ أو تطرب إلى لحن من ألحان الغرام يترنم به فى رقة فتنتشى له عواطفها وتهتز مشاعرها .. ضاقت الفتاة بهذا الستر فدست إليه من يدفعه إلى أن يتعرف إلى أخيها الأكبر فيجد السبيل إلى الدار ... إلى (علية) ، وتستطيع هى أن تراه وأن تجلس إليه على حين غفلة من أهلها

ومرت الأيام فإذا (بهاء) صديق أخيها الأكبر ، يزوره أصيل كل يوم ويرافقه فى نزهاته ويعينه على حاجاته ، وسعدت الفتاة بما كان وسعد الفتى

وطارت الشائعات تقول إن (عطية) قد خطب (علية) إلى أبيها

وعطية فتى من ذوى قرابتها خشن الجس قوى الأركان وثيق التراكيب ، وهو عامل فى مصنع ، يقضى نهاره فى الجهد العنيف لقاء دريهمات لا تسد خلة ولا تدفع غائلة . ولكن والد الفتاة رضى به زوجاً لابنته . وما كان للأب أن يرد فتى من ذوى قرابته يبذل غاية الطاقة ويستفرغ منتهى الجهد ليكسب قوت يومه ، فهو نفسه نشأ — فى صباه — نجاراً صغيراً يعانى شظف

العيش وشدة الفاقة ، فما زال يرغم نفسه على الدأب ويحملها على الجد حتى أصبح الآن — صاحب (ورشة) كبيرة تدر عليه الآلاف والآلاف .

وجاءت الأم تزف البشرى إلى ابنتها (علية) وفى رأيها أن الفتاة ستهتز للخبر فرحاً وتطير له حبوراً ، ولكن ما راعها إلا ان ترى فى ابنتها الاباء والرفض ، وإلا أن تلمس فيها روح الكراهية والبغض ، وإلا أن تشهد وقع الخبر عليها عنيفاً قاسياً . وكيف ترضى الفتاة المدللة بهذا العامل الفقير وهى تراه يدلف إلى الدار فى ثياب مهلهلة قد لوثتها آثار العمل وعاثت فيها يد الأقذار ، فإن حاول أن يتأنق فى لباسه بدا مضطرباً يختلج فى ثياب فضفاضة لا تنم بسمة من الذوق ولا مسحة الفن ؟ كيف ترضى به ومن أمامها (بهاء) وهو فتى رقيق جذاب يتأنق فى شعره الرجل الناعم وفى عطره الفواح وفى رباط رقبته الزاهى وفى بذلته النظيفة المتسقة وفى حذائه اللامع وفى حديثه الرقيق وفى ...

وحاولت الأم جهدها أن تحمل الفتاة على أن تنزل عند رأى أبيها أو تأتى السلم لرغبة ذويها ، فما أفلحت ...

وجلست الفتـاة — ذات يوم — إلى فتاها ، تقص عليه قصة عطية وتستثير همته ورجولته وتنفث فيه سموم الأنثى عبرات تتدفق حرى وباردة على خديها لتدفعه إلى غاية . واستسهل الفتى وانقاد فتقدم إلى أبيها يخطبها فما تأبى الأب ولا تموقت الأم . وخرج (عطية) من الدار يجرر أذيال الخيبـة ، وفى قلبه حسرة ما تنطفىء .

* * *

وتعاقبت الأيام تشيد داراً صغيرة يسعد فيها زوجان وثلاثة أطفال .

وشعر الزوج (بهاء) بأن حاله قد استحالت إلى أخرى فهو لا يطمئن إلا إلى جانب زوجته ، ولا يهدأ إلا إلى جوار أطفاله ولا يسكن إلا فى كنف الدار ، غير أن أمراً واحداً كان يحز فى نفسه فيعكر عليه صفاء الدار ويسلبه رونق السعادة بالزوجة والولد ؛ أمراً واحداً كان ينزع عنه — دائماً — القرار والهدوء : فهو كان يشعر بضيق ذات يده يمسكه عن أن يسد حاجات الدار وعن أن يشبع رغبات المدرسة . لطالما أصابه العنت والضيق مما يحس من فاقة وعسر ، ولكن زوجته كانت تسرى عنه بعض أتراحه بكلمات جوفاء لا يلمس فيها روح التضحية ولا معنى الوفاء

وأخذ البلاء يطحنه بين فكين من جفاء وقسوة ، فجذب ابنته الكبرى من المدرسة لتعمل ممرضة فى مستشفى فما أفاد شيئاً ، وشعر كأن عيوناً كثيرة ترمقه شزراً وكأن قلوباً حبيبة إلى نفسه تخفق بالازدراء والاحتقار ، فضاقت عليه الدار بما رحبت وتبخرت السعادة من أركانهـــا ، وتألق الهم فى فوديه شعرات بيضاء لامعة وارتسم الأسى على جبينه خطوطاً غائرة . وعز عليه أن يبدو أمام أحبائه يتسربل بالضعة والعجز ، فامتدت يده إلى أموال الدولة يختلسها ليسد خلة أو يوفى ديناً .

وتيقظت عين الحارس على يد عقد فى صمت فكبلها بالحديد، وساقها إلى ساحة القضاء؛ وجاء القاضى يمجد الأمانة ويغضى عن الشفقة ، ويطرى العفة ويتناسى الرحمة .

آه ، لك الله أيها الأب المسكين ! لو استطعت — فى عجزك — أن ترد سغب ابنائك بقطعة يجتزها من لحمك لقدمتها لهم فى رضا وهدوء ! ولو استطعت — فى فاقتك — أن تطفىء غلة صغارك بسيل من دمك لدفعته إليهم فى غير ونًى ولا بطء !

ولكن القاضى تكلم بلسان القانون الذى كتبه رجل ، فسجن الأب ليذر من خلفه زوجة وثلاثة أبناء لا يجدون العون إلا فى دريهمات قليلة هى راتب الابنة الكبرى . دريهمات لا تغنى من جوع ولا تسمن من عرى .

* * *

ورأت (علية) الهاوية من أمامها توشك أن تبتلعها هى وأبناءها حين تداعى مستقبل زوجها وانهارت كرامته وتحطم شرفه ، فجلست إلى نفسها وإلى شيطانها ساعات تتلمس الرأى وتحتال إلى الخلاص ، فما برحت مكانها حتى انفرجت الغمة عن فكرة

وعند الصباح انفلتت المرأة من الدار فى زينتها إلى (عطية)، الخطيب الذى خرج من دارها — يوماً ما — يجرر أذيال الخيبة وفى قلبه حسرة ما تنطفىء ... لقد عنت عليه يوم أن كان عاملاً فقيراً تقتحمه العين وتزدريه النفس . أما الآن فلقد أسبغ الجد عليه من فيضه وحبته الحرب من فضلها فأصبح يرفل فى النعمى والنعيم ويسعد بالجدة والثراء .

ورأى الرجل (علية) فهم يستقبلها وعلى شفتيه ابتسامة وفى قلبه نبضة . وجلس الرجل إلى المرأة والشيطان ، فقامت من مكانها حتى كان قد استيقظ فى قلب الرجل هوى قديم كان قد غمره اليأس فطوا فى زاوية من النسيان

وفى مساء اليوم التالى وقف (عطية) أمام المرآة ينفض عنه غبار العمل وينزع إلى الزينة والعطر، وقد بدت عليه سيما النشاط والشباب، وفاضت على وجهه علامات المرح والسرور، ثم انسل خفية إلى دار التى أحب ... إلى دار علية

وغبر الرجل زماناً يختلف إلى دار (علية) يحبوها بالجزل من من العطاء والغالى من الثياب والفاخر من الطعام، لايدخروسعا فى أن يتلمس رضاها ويتوخى فرحتها، على حين قد فرغت داره منه ومن عطفه فى وقت معا

وأحست المرأة بالرجل يندفع نحـــوها فى حماقة وطيش، فأرادت أن تمكر به رويداً رويداً، فجلست إليه فى ساعة من ساعات النشوة والمرح تحدثه قائلة «لست أدرى كيف أشكر لك فضلك، ياحبيبى، وأنت قـد غمرتنى بنعمة منك سابغة، فما استشعرت فقد الزوج ولاغيبة العائل» فقال الرجل لا «عليك، فإن منتهى أربى أن أفوز برضا قلبك وأن أظفر ببعض عطفك» قالت «أو تشك فى أخلاصى لك وحبى؟» قال «لا، أبداً!» قالت «وأنا قد علقتك ولا أخشى إلا أن تمتد الأيام القـاصية فتضرب بيننا بحجاب لا أستطيع أن أنفذ منه ولا تستطيع أنت» قال «أما أنا فإنى أحس بعاطفة جارفة تجذبنى إليك فلا أستطيع عنك صبراً» قالت «ولكننى أخشى الأيام وأحس بها توشك أن أن تفرق بيننا» قال «وكيف» قالت؟ أو نسيت أن زوجى على وشك أن يخرج من السجن» قال «ولكننى لاأستطيع عنك صبراً» قالت «إذن فلا مفر من أن نتلمس الوسيلة إلى لقائنا دون أن يتطرق الشك إلى قلب زوجى» قال فى غفله «وكيف السبيل؟» قالت فى مكر «لا سبيل إلا أن تتقدم ـ الآن ـ فتخطب ابنتى الكبرى» فأطرق الرجل يقلب الرأى ولكن المرأة عاجلتـه فى دلال «وإذ ذاك تستطيع أن تدخل الدرمتى شئت وأن تجلس إلى فى غير ريبة ولا شك» وأطرق الرجل مرة أخرى وإن عقله ليدفعه عن الفكرة وإن قلبه ليجذبه إلى المرأة التى أحب، غير أن المرأة استمرت فى حـــديثها «ولا ضير عليك إن فرغت إلى دارك وأولادك، وستجد فى هذه الخطة ستاراً يداريك هنا ولا يفزعك عن دارك» ثم مالت إليـــه فى خفة رشوق وهى تقول «فما رأيك؟» وأحس الرجل بعطر المرأة يخطف عقله ويسلبه قلبه فقال «لابأس، فأنا أوافق» وسميت الفتاة على رجل فى سن أبيها وترامى إلى الفتاة حديث أمها العاشقة فثارت ولكن الأم هرت فيهـا هريراً منكراً أفزعها فاندفعت إلى حجرتها تبكى خطاها العاثر

وخرج الزوج من السجن فما وجـد مناصاً من أن يلقى السلم إلى زوجته فبارك الفكرة وفى زايه أنه سيجد فى زوج ابنته عوناً على لأولاء الحياة وغلظة العيش

ومكرت المرأة بالرجل مرة أخرى فإذا هى تستنزف ماله فى غير رحمة ولا شفقه لتدخره لنفسها، وإذا هى تختله عن زوجته وأولاده رويداً رويداً لتستأثر به من دونهم، وصرفته عن عمله، وأرغمته على أن يقتر على زوجته وأولاده

ثم جاء الزوج يستحث الرجل على أن يخطو خطوات فساح فى سبيل إتمام مراسيم الزواج فأبى ولا تمهل وجاءت المرأة تمكر به ـ مرة أخرى ـ فطلق زوجته وطرد أولاده، فما كان له ـ كرأى الزوجة ـ أن يتزوج من ابنتها الفتاة الآسرة الجميلة وهو زوج ورب أسرة، فيضربها بالضرة ويقتلها بالغيرة.

ياعجبا! لقد ارتدع الرجل فى محاة الجريمة حين أسلس وانقاد إلى امرأة من بنات حواء. لقد كان يصحو من غفلته ـ بين الحين والحين ـ فيعقد العزم على أن يحطم قيداً كبلته به هـذه المرأة فيعود إلى عمله، إلى داره، إلى زوجته، إلى أولاده، ولكنه كان يعجزه أن ينسى ما ذاق إلى جانبها من لذة الحياة ومتعة النفس، فيهى عزمه ويضعف جلده

وأرهقت المرأة زوج ابنتها المزعوم بتكاليف الزواج فما استطاع أن يشبع نهم المرأة التى سلبته كل ماله ... سلبته كل ماله فى فى نزوة من نزوات الحب الآثم. وجلس إليها ـ فى خلوة ـ ينفض أمامها جملة حاله وينثر على عينيها عجزه وضيق ذات يده ويطلب إليهـا ـ فى رقة ولين ـ أن تخفف من طلباتها فثارت به ثورة جارفه، وطردته من دارها وهى تقول «ماأحمقك أيها النبى! أفكان لى أن أزوج ابنتى الفتاة الرشيقة الناعمة إلى رجل عجوز مفلس مثلك؟»

طردته بعد أن استنزفت كل ماله، وبعـد أن ختلته عن زوجته وأولاده ... طردته وبعد أن هدمت داراً فيها النعيم، وبعد أن حطمت أسرة فيها السعادة، بعد أن شردت صغاراً فيهم الطهر.

فيا لشيطانية المرأة ... يالشيطانية المرأة ...

كامل محمود حبيب